

خصوصية الأدب النسائي، حقيقة أم سراب؟

The specificity of women's literature, a reality or a mirage?

فتيحة بلمبروك

كلية الآداب واللغات والفنون سيدي
بلعباس (الجزائر)

mabrouk.fatiha32@gmail.com

تاريخ النشر: 2025/12/26

تاريخ القبول: 2025/12/14

تاريخ الاستلام: 2025/09/27

ملخص:

لطالما سعت المرأة أن تصبح عنصرا فاعلا في المجتمع، رغبة منها في التخلص من كونها عنصرا تابعا للرجل، وكذا التخلص من النظرة الدونية التي جعلت الفحولة مركزا للعالم، فغيّبت إبداعاتها عن المشهد الثقافي، لذا أسست المرأة بكتابتها المشاكسة للصوت الذكوري نمطا أدبيا يسعى إلى ترسيخ قيم المواطنة بحث على التعامل السوي مع المرأة، ويرفض موقعها النمطي الذي صنّفها تاريخيا خارج عملية الإبداع الأدبي. بيد أنّ سعيها الحثيث من أجل إيجاد مصطلح خاص بها، والبحث من خلاله عن ذاتها، وهويتها الأنثوية المواربة خلف حصن الرجل لم يخل من انتكاسات، وبخاصة عندما أتى الرفض من بعض النساء للمصطلح والهوية الجنسانية للأدب، وبدا الحديث عن أدب خاص بالمرأة يتطلب سعيًا لخطاب مفارق مغاير لما يكتبه الرجل، توقا لتحطيم مركزته، وتقديم صورة جديدة للعالم مركزها الأنثى. ومن خلال هذه الورقة البحثية سنحاول إلقاء الضوء على ما أحدثه مصطلح أدب نسائي من إشكالات وما واجهه من اكراهات وارتباكات في سبيل الوصول إلى وضع قار يؤهله لمنافسة الخطاب الذكوري، وهل استطاع حقا أن يؤسس خطابه المفارق وخصوصيته التي تؤهله للتربع على عرش الإبداع أم إنّها مجرد أحلام لم تجد لها سبيلا للتحقق على أرض الواقع؟

الكلمات المفتاحية: الأدب النسوي، المضامين، المشاكسة.

Abstract:

Women have always strived to become an active element in society, wanting to get rid of being a subordinate element to men, as well as getting rid of the inferiority view that made masculinity the center of the world, thus absenting their creativity from the cultural scene, so women have established a literary style that seeks to establish the values of citizenship, urging the proper treatment of women, and rejecting their stereotypical position that historically classified them outside the process of literary creativity. However, her relentless pursuit to find a term for herself and search for her self and her feminine identity behind the male fortress was not without

setbacks, especially when some women rejected the term and the gendered identity of literature, and it seemed that talking about women's literature requires.

Keywords: Feminine, privacy, sexuality, identity, female, inferiority

. مقدمة: اقتزن وجود المرأة منذ القدم بالخطيئة والذنب، وهذا ما نالته أمنا حواء جرّاء حادثة الأكل من الشجرة الممنوعة، رغم أنّها وسيّدتنا آدم أكلا معا في وقت واحد، وبدل أن يصبح الشيطان الذي وسوس لهما معا هو العدو المذنب، باءت أمنا حواء بذنوب الإغواء، وألصقت بها التهمة، وسلبت مكانتها، واستهلكت حقوقها المدنية بعدها، من ميراث وتعليم، وحق في الزواج بمن تريد، أو طلاق، وصار للرجل حق التصرف. هذا ما يجعل التساؤل عن مكانة المرأة في المجتمع وحقيقة وجودها من أكثر الإشكالات التي يجب الخوض فيها قبل البحث عن خطاب مفارق جديد يخصّها.

قاد حديث الفلاسفة وعلماء الاجتماع عن مكانة المرأة والرجل، وصفاتهما في المجتمع إلى ما يسمى بالجنادر للفرقة بين الجنسين، والتعريف بدور كل منهما داخل المجتمع، وما يصاحبه من خصائص اجتماعية ثقافية مبنية على أساس الجنس والنوع البيولوجي، وكيف جعل الرجل في مقابل المرأة بصفتهما متقابلين، ويكملان بعضهما بعضا¹.

سارت أغلب النظريات الفلسفية القديمة نحو الخط من قيمة المرأة، والنظر إلى أنّ ما تمارسه من نشاطات أقل أهمية مما يمارسه الذكور، فوجدت على السطح أعمال فلسفية قسّمت العمل على أساس الجنس، ومن هنا ذهب أرسطو إلى عدّ دونية المرأة مرتبطة بطبيعتها البيولوجية، وأنّ وظيفتها الحقيقية هي الإنجاب، وفصل بين الذكر والأنثى بما سمّاه انفصال الأعلى عن الأدنى، كما رأى بأن المرأة تشويه للإنسانية، إذ تشكّلت بدلا من الذكر بسبب انحراف في الطبيعة، فهي مخلوق مشوّه، وليست سوى وعاء سلبي في عملية التوالد، فساوى بينها وبين الأطفال من حيث عدم العقلانية، لذلك نادى بضرورة أن يحكم الرجل المرأة ويكون مسؤولا عنها. كما عدّ النساء حسودات وكاذبات ومفتريات، ولا تناسبهن القوة، والشجاعة، والذكاء لئلا تحدن عن وظيفتهن الحقيقية في العناية بالمنزل، كما أنّ الطبيعة لم تخطئ حين لم تعطها عقلا كاملا لأنّ وظيفتها لا تحتاجه، لذلك اتصفت نظرة أرسطو بأنّها أبوية بطيركية صارمة، عانت معها المرأة.

لم يختلف الأمر كثيرا مع أفلاطون إذ صنّفت المرأة في فترته على أنّها جزء من الملكية الخاصة للأفراد، ووصل معه الأمر لحدّ التأسّف كونه ابن امرأة، ورأى أنّها شريرة بطبعها، وأنّ الآلهة صنعت رجلا كاملا شرط المحافظة على

الكمال، وإذا أُخلّ بصفة منه وُلد ثانية في صورة امرأة. ليعدل عن رأيه ذاك ويتدارك الوضع في مدينته الفاضلة الثانية، وصرّح في جمهوريته بأهميّة تساوي النساء مساواة تامة مع الرجل، إذ أدرك أهمية الأنثى في تحقيق رفاهية المجتمع. ولعلّ سقراط لم يخرج عن نظرة غيره من الفلاسفة إذ إنّه رأى في وجود المرأة مصدرا للأزمة والانهيار في العالم، وراح يشبّھها بالشجرة المسمومة التي يكون ظاهرها جميلا لكن العصافير تموت حينما تأكل منها. وكذلك كان حال جون لوك حين أقصى النساء عن مجال الحياة الاقتصادية، وأكّد تبعيتها للرجل، مثلما صوّرها روسو على أنها مصدر الشر والخطيئة، وخضوعها للرجل هو بمثابة العقاب الذي تستحقه، وأيّ خروج عن طوعه سيكون خروجا عن فطرتها².

أنشأت كل هذه التراكمات الضاربة في القدم صورة نمطية عنوانها دونية المرأة وتخلّفها في مقابل مركزية الرجل وسلطته، وتلك الفروق الجندرية ما هي سوى مضاعفات نالت من حظ المرأة في الظهور، وبدأت ممارسة المرأة للإبداع أشبه بممارستها للسياسة، لذلك أصاب العطب سفينة إبداعها قبل أن تحاول الإبحار، وخرق الرجل مشهدا أنثويا حتى لا ينازعه الصدارة والقوة، وكان على المرأة رأب الصدع الذي أصاب سفينتها، وتعاود الإقلاع وتتصدّى للرياح العاتية التي تنتظرها، ولها أن تستجمع قوّة أشبه أو أعتا من قوة الرجل كي تستطيع البقاء، وكان طريقها إلى التحرر الإبداعي يحتاج إبدالات جديدة تمكّن كتابتها من بناء نسق يفارق ويغايّر ما يكتبه الرجل، وعليه أن يحدّد تغييراته الجذرية لتحقق للخطاب الذي تكتبه النساء فرادته، وخصوصيته، وكان التحدي صعبا في سبيل السعي نحو الخصوصية، وكثيرا ما باءت تلك المحاولات بالفشل كونها وقعت في فخ التشابه، فالمعيار الذي تقيس عليه المرأة اختلافها هو خطاب متجذر مترسّخ وله حصن حصين من الصعب تجاوزه!.

المرأة والتحرر:

رغم أن الإسلام أعاد للمرأة حريتها ومكانتها، بتحريم قتلها وإعطائها حقها في الميراث، وإبداء الرأي، والعمل، إلّا أن النسق الثقافي المتمثل في الوأد (ترسبات المجتمع الجاهلي) بقي سائدا في المجتمع العربي، الذي تجاذبته إيديولوجيات عدّة دعمت النزعة الأبوية التقليدية التي تؤكّد تفوق الرجل على المرأة، وأكّدت بشكل أو بآخر مركزية الذات الذكورية، لسنوات عدّة.

إن أي قانون يمنح المرأة العربية عطاء ما، سيبقى عاجزا ما لم تحاول تثقيف نفسها وتتعلم كيف تحقق وجودها. عندها تستطيع أن تشارك الرجل في بناء مجتمع متماسك، وتساهم معه في حضارة القرن الحادي والعشرين، لا أن تبقى على هامشه³. فالمهمّة الصعبة الأولى التي كان على المرأة مواجهتها ليس الرجل فقط وإنّما المجتمع بعاداته وتقاليده وسلبياته في التعامل الصحيح مع المرأة ككيان له حقوق واحتياجات لا يجب إغفالها.

بيد أنّ الأبوية المترسخة مبادئها في المجتمع لم تكن متصالحة مع حقوق المرأة كما يجب، وبما أنّها كانت سبب المشكلة خلّفت لدى المرأة ذلك الخطاب المشحون بالصراع ضدّ الرجل، فبحثت عن ذاتها المنتهكة، وولّدت لديها محاولة الخروج من المعطف الأبوي، وهو في حد ذاته ما أسّس أزمة المصطلح، وبين من يقبل بالتصنيف ومن يعارضه سال حبر كثير، وشحذت آراء نقدية عدّة.

أزمة المصطلح:

أثار مصطلح الكتابة النسائية، وما زال، يثير في العديد من الأوساط الثقافية الكثير من التساؤلات المفاهيمية، والاصطلاحية، التي أنتجت مع تداولها لبسا معرفيا. تلخصت هذه الآراء في مواقف اندرجت في خانتين ما بين مؤيّد ومعارض؛ من بين أهمّ الأسئلة التي شكلت المتن الحكائي في الرواية النسائية العربية سؤال الخصوصية والهوية في بعدها الذاتي والجماعي: سؤال الهوية الذي يستحضر سؤال الاختلاف، فقد شكلت الهوية والاختلاف أحد أهمّ شواغل كاتبات الرواية، سؤال هوية تتعدد صورها وتجلياتها، وسؤال اختلاف يبقى مدار جدل نقدي بين من يقر بخصوصية إبداع المرأة الروائي، وبين من ينفي وجود هذه الخصوصية بحجة أن الكتابة لا تعرف جنس مبدعها، فالرجل والمرأة سيان في العملية التي لا يجب إخضاعها لهذا التصنيف الجنسي.

لم تفصل إلى اليوم الساحة النقدية العربية في القضية، فهي تتأرجح بين مؤيد ومعارض بين من يقر بمشروعية مصطلح الأدب النسائي أو النسوي، وبالتالي بخصوصية ما تكتبه المرأة وامتلاكه لهويته التي تصنع اختلافه أمام ما يكتبه الرجل، وبين من لا يعترف بهذا التصنيف الذي يقسم الإبداع الأدبي إلى نسائي ورجالي وبالتالي يقدم العمل الإبداعي نفسه بعيدا عن كل تحديد هوياتي. اهتمت بعض القراءات النقدية التي حاولت التأصيل لجماليات الكتابة النسوية في دائرة المعركة الشرسة ضد الآخر /الرجل، لتغدو هذه الكتابة لا تصف ولا تشرح ما تعانيه النساء بل تهاجم وتخوض في ماء غامر، مما يجعل من اللغة حالة جنسوية نارية موجهة ضد الآخر⁴.

طرح النقاد عدة تساؤلات لعل أهمها حول مصطلح "الأدب النسائي" الذي عرف اتجاهين: الرفض، والقبول لدى النقاد، والأدباء، فهناك من يرى أنّ الأدب النسوي هو ذلك الأدب الذي يكتبه (الرجل/المرأة) ويكون موضوعه المرأة، وهناك من يطلق عليه الأدب النسائي، ويعدّونه الأدب الذي تبذعه المرأة، ونظرا لهذا الجدل الذي لاقاه المصطلحان فصل بعض النقاد بين المفهومين، خصوا الأول (الأدب النسوي) بالأدب الذي موضوعه المرأة، أما الثاني (الأدب النسائي) ما تكتبه المرأة عن المرأة، أو عن موضوع آخر. لكن هذا لم يكن مفهوما قارّا إذ اختلفت المصطلحات من ناقد لآخر، وهذا ما أوقع بلبلة كبيرة في التمييز بين المصطلحات.

رأى بعضهم بأنّ النسوية "بالمعنى الضيق مصطلح يشير لمحاولة الحصول على حقوق سياسية وقانونية مساوية للنساء، في حين يشير معناها الواسع إلى كل نظرية تعتبر العلاقة بين الجنسين علاقة إجحاف وإخضاع أو اضطهاد، وتحاول تحديد وعلاج ذلك الاضطهاد"⁵، هذه النظرة التحررية خلقت العديد من المساوئ، إذ بدل أن ترأب الصدع الذي وقع في المجتمع جرّاء التمييز الحاصل بين الرجل والمرأة عمّق الهوة أكثر وزادها وبالا، حيث طفا على السطح صراع غير مبرر، وبدت بعض الروايات مثلاً مجرد تلاسن بين شخصيتي المرأة والرجل.

لا يجب أن ننسى أن أوّل المدافعين عن قضية تحرر المرأة هم رجال، إذ نادوا بتحررها، ومنحوها فرصة التعبير عن نفسها، مثل "رفاعة رافع الطهطاوي"، الذي يعدّ أول صوت ذكوري ندّد بتحرير المرأة ومنحها جميع حقوقها منها حق التعليم، فكان "أول من دشّن الدعوة إلى تعليم المرأة هو رفاعة رافع الطهطاوي الذي تصدى لهذا الموضوع واستنكر الحالة السيئة التي يعاني منها هذا الجنس البشري بصفة خاصة والأسرة بصفة عامة، بسبب جهالة المرأة العربية"⁶ أعطت الكثير من الأمور السلبية التي حصلت للمرأة في المجتمع صورة عن عمق المأساة رغم تكريم الإسلام لها.

فالمجتمعات العربية كان لها تصوّر قاصر حول تحرير المرأة وتعليمها، بالرغم من أن التعليم حق للأنتى كما هو حق للذكر، نلاحظ أن "رفاعة رافع الطهطاوي"، و"قاسم أمين" تبنيّا الثقافة الغربية وتأثراً بها، وحاولا إعطاء المفهوم الحقيقي لمعنى تحرير المرأة استناداً للمرأة الغربية، ولما جاء به الإسلام كون هذا الأخير كرم المرأة وحرّرها من الظلم والإهانة التي كانت تتلقاها من الرجل، "إن موقف الدين بوصفه وحياً منزّلاً وبوصفه دين الفطرة يعطي المرأة حقها الطبيعي ولكن الثقافة بوصفها صناعة بشرية (ذكورية) تبخس المرأة حقها ذاك وتحيلها إلى كائن ثقافي مستلب"⁷ فالمجتمع كان مقيّداً بما تملّيه العادات والتقاليد، ممّا جعل المرأة في ركن ركين مستلبة الصوت والتفكير لأنها أصلاً غير مسموح لها بإبداء رأيها.

لذا نلّفني من الأصوات النسائية التي أخذت على عاتقها مهمّة الدفاع عن بنات جنسها، مجابهة كل الصعوبات التي كانت ستدّمر حياتها، ومسيرتها الأدبية نجد "ملك حفني ناصف"، التي طالبت بحقوق المرأة الاجتماعية، إذ ركزت باحثة البادية في دعوتها على المطالبة بالتعليم والتربية، فكانت تكتب باستمرار في "الجريدة" لتساهم في المعارك التي كان يثيرها موضوع قضية تحرير المرأة، وصبت كل طاقاتها في هذا الاتجاه، فاكتمت بذلك صبغة التخصص في الميدان الاجتماعي للدفاع عن المرأة⁸.

نجد من المغرب العربي أصوات رجالية ونسائية ساندت قضية تحرير المرأة، نذكر من بينهم الكاتبة المغربية "فاطمة المرينسي"، ومن الجزائر نجد "زينب الأعوج"، و"واسيني الأعرج". و"الأول مرّة قامت كاتبتان عربيتان بتعزية

الوضع الذي عمل منظرو الأبوية المستحدثة على التستر عليه بأساليب بلجوتهم إلى الخرافة، وعمد المصلحون المسلمون باستمرار إلى إضفاء طابع الصوفية عليه. قامت نوال السعداوي، (...)، بمواجهة جريئة في كتابها المرأة والجنس، فلم تثر النواحي الاجتماعية والاقتصادية لتحرر المرأة فحسب، بل عالجت أيضا النواحي الجنسية. وإضافة إلى إثارتها قضية الجنس في كتابها ما وراء الحجاب فقد طرحت فاطمة المريسسي، (...)، الناحية القانونية / الشرعية لخضوع المرأة، وأشادت إلى الوسائل التي يتوجب اعتمادها لتغيير وضعها في مجتمع إسلامي معاصر فعليا⁹.

يعتمد توجه الكاتبتين منهجا عقلانيا منظما، ورغم اختلافهما في طريقة التحليل، إلا أنهما اتفقتا على شروط جوهرية أولية ابتغاء تحرير المرأة: بخلق تغيير اجتماعي جذري، والإطاحة بهيمنة الأبوية¹⁰، بينما يغيب عن تصورهما الحل السياسي اللازم لهذه الأزمة المتجذرة علته في المجتمع.

بدت المرأة العربية "تعاين من اغتراب مزدوج داخل المنزل وخارجه، اغتراب اقتصادي واجتماعي ونفسي نظرا للتباين في المرجعية الثقافية وتضارب الأدوار والرغبات، بأن تعيش المرأة على مزايا المجتمع الذكوري ورعايته كالأعالة واحترام ضعفها والذود عنها، أو أن تكون عصرية تأخذ زمام المبادرة وتعتمد على قواها وقدراتها الذاتية المحدودة أصلا في المحيط الخارجي".¹¹

فالتغيير الذي طال بعض المعايير الاجتماعية في الثقافة الشعبية، وأشكال السلوك والتنظيم الاجتماعي، كان تغييرا ظاهريا غير حقيقي في مضمونه، وبقيت بعض العادات والأعراف التي تدين المرأة متأصلة في التراث والثقافة. والزيادة في أعداد المتعلقات والخريجات الجامعيات، هي "زيادة كمية لم يرافقها تغيير نوعي في وعي المرأة العربية، ومشاركتها في الحياة الاجتماعية. فالتغيير في الوسط الجامعي تغيير في الشكل، وليس في المضمون"¹² فهل الوضع الحالي للمرأة العربية قادر على مواجهة التحديات الراهنة؟.

يواجه المجتمع العربي في هذه المرحلة تحديات كثيرة وخطيرة، تهدد هويته الثقافية وبنيته الاقتصادية والفكرية والاجتماعية وحتى الجغرافية. ولا ريب في أن هذه التحديات تشمل المجتمع بجميع فئاته ذكورا وإناثا، لكن وطأتها على المرأة أشد لأنها الأم التي تربي وتنشئ الأجيال. فالتحديات الحالية تضيق الخناق على المرأة العربية وتحملها أعباء إضافية تضاهي أعباءها من الأمية، والجهل، والضغط الاجتماعي، وتضعها في المواجهة مع صراع متعدد الجوانب يتراوح بين القيم الموروثة والقيم الجديدة. فقد بدأت بعض القيم الأخلاقية والمنظومات الاجتماعية تتدخل مع الغزو الثقافي¹³.

وما زال العرب أثناء دراستهم لحركة النسوية بمنطلقاتها وتاريخها، وأفكارها، محتارون من الموقف الذي يتخذونه أمامها، لأن الاحتكاك بالحركة النسوية وما بعدها يقود إلى التأثير بحياة الآخر الغربي والتعامل بأدواته، والتفكير في

قيّمته وجدواه في مجتمعنا العربي هو مأزق آخر، إذ علينا معرفة هذه النسوية "ومدى تناسبها أو تناقضها مع قيمه وموروثاته الاجتماعية والثقافية والعقائدية، خصوصا وأنّ المجتمع العربي بطبيعته يتسم بقدر شديد من التحفظ والتقليدية في تناول كل ما يتعلّق بالمرأة وحياتها، وفي هذا الإطار لابدّ أن تبدو بعض الأفكار التي تطرحها بعض النسويات البريطانيات أو الأمريكيات إمّا غريبة على الوعي العربي أو غير مقبولة لديه أو صادمة له"¹⁴. لذا فأغلب العوامل السياقية المرتبطة بهذه الحركة تتطلب فهما وتمحيصا قبل تبني المصطلح تبنيّا أعمى لا يؤدي إلا إلى فقدان هوية النص العربي وخصوصيته قبل كل شيء.

ومما يبدو أنّ قضية تحرير المرأة ومساواتها مع الرجل من أكثر المآزق التي واجهها الإبداع، فالقضية لها تداعيات سياسية، واقتصادية، واجتماعية، وفكرية أيضا، فلكي تسترجع المرأة مكانتها أو حقها في الإبداع، عليها الانتقال من الهامش إلى المركز الذي شغل الرجل مساحته كلّها، بينما كان نصيبها التغييب والقمع، كما عليها تغيير النسق الثقافي السائد، وتتصارع معه في أول محطة، "والحس الفحولي في الثقافة الذي هو (المتن) الوجداني والعقلي لنا ولثقافتنا لابدّ أن يندرج من تحته مضمّر ثقافي يسعى بحياء أو ربما بمخاتلة لكي يشاغب المتن ويهزّ بعض جدران القلعة، ومن هنا جاء حفرنا عن علامات لتأنيث الخطاب وأخرى لاستنبات قارئ مختلف يبحث له عن وجود ثقافي حر ومستقل"¹⁵.

فالمهمة شاقّة أمام امرأة يؤرّقها استفحال وسيادة نسق ثقافي فحولي، فالشعر شيطان ذكر، وجمل بازل، والطبقات فحول، وللمعلقات رجال وليس نساء، وإن ظهرت شاعرة ماء، فعليها أن تستفحل وتكتب مثل الرجل... وما الأنثى من كلّ هذا المشهد الأدبي سوى كائن ناقص تابع، يحاول هزّ حصن منيع ضربه الرجل على نفسه سداً منيعاً، وليس لها سوى مخاتلة هذا الوعي الوجداني باحتشام، لوعيتها بمدى أصالته، ومدى صعوبة أمر زعزعته.

فاللّاتي نادين بضرورة التصنيف مؤيدات ضرورة امتلاك مساحة خاصة بهن رأين أنه أدب يمتلك خصوصية تميّزه عما يكتب الرجل ولا بد من التفرقة بينهما، بينما الراضات رأين العكس فلا جنس للإبداع، ولا فرق فيما يكتب الناس إلا في القيمة والتنوعية.

أ المؤيدين:

لعلّ الموقف المعارض لمصطلح الأدب النسائي لا ينفي وجود مؤيدين له، فهناك أصوات نسائية ورجالية ساندت الأدب النسائي بكلّ مميزاته وفرادته عما يكتب الرجل فنجد:

الكاتبة بثينة شعبان ساندت هذا المصطلح وأقرت به حيث قالت: "قد حان الوقت كي يكون للنساء صوت فيما يشكل الكتابة الجيدة، ولا شك أن كل شخص يكتب بشكل مختلف، والنساء يكتبن بطريقة مختلفة عن الرجال، ببساطة لأنهن مخلوقات مختلفة ولديهن تجارب تاريخية مختلفة واهتمامات حياتية مختلفة"¹⁶، فهي تدعم المصطلح عندما تكتب النساء بشكل مختلف عن الرجل. وما يثبت دعمها للمصطلح، هو أنها قامت باستحداث مادة عملية جديدة سمّتها بالأدب النسائي المقارن، وتولت تدريسها بجامعة دمشق.¹⁷

كما نجد "جورج طرايشي" الذي يميز بين ما تكتبه المرأة، وما يكتبه الرجل حيث يرى أن الرجل يكتب بعقله أما المرأة فتكتب بقلبه، "فالعالم هو محور اهتمام الرجل أما المرأة فمحور اهتمامها الذات، حيث تستمد جمالية الكتابة في المقام الأول من ثراء العواطف وزحم الأحاسيس"¹⁸ ف كتابة الرجل تتسم بالموضوعية، أما المرأة فتطغى على كتاباتها الذاتية، إذ إنّها تتميز بمشاعرها الخاصة وأحاسيسها وعاطفيتها المرهفة التي يصعب أن تتواجد عند الرجل وهذا ما يفرّق بينهما.

أما "ليلي الأحيدب" فهي تقبل المصطلح فقط دون خلفيات فتقول "فأنا امرأة مبدعة لا يضربني في شيء أن توصف كتاباتي بالنسائية لأنني ببساطة لست رجلاً، لكن بشرط أن تكون لهذه التسمية ما يقابلها في الطرف الآخر، فيقال مثلاً كتابات رجالية أو أدب رجالي"¹⁹

كما تقرّ الكاتبة "نورا أمين" بمشروعية مصطلح الأدب النسائي وتقول "نعم هناك أدب نسائي ومسرح نسائي اعتراضي هو أننا نتعامل مع هذه المصطلحات كترجمة، هذه المصطلحات لم تولد عند العرب من فراغ بل كان لها تاريخ وتراث وجهود كثيرة، لها مسار بمعنى أدق ونحن لا ننتهي لنفس التيار ولا أقول أننا حتى فرع لهذا التيار."²⁰ فعلى رأي الكاتبة أن الإشكال لا يكمن في تصنيف ما تكتبه المرأة إلى أنه أدب نسائي، وإنما هي تعترض عما وراء المصطلح من تهميش ودونية وهي الصور النمطية التي رسمها الخطاب الذكوري.

ب المعارضين:

رفضت العديد من الكاتبات تصنيف أدبهن على أنه أدب نسائي فالناقدة "خالدّة سعيد" مثلاً ترفض مصطلح الإبداع النسائي من منطلق أن التسمية تتضمن الهامشية مقابل مركزية مفترضة، وترى أن القول: "بكتابة إبداعية نسائية تمتلك هويتها وملاحمها الخاصة يفضي إلى واحد من حكمين: إما كتابة ذكورية تمتلك مثل هذه الهوية وهذه الخصوصية وهو ما يردّها بدورها إلى الفئوة الجنسية، فلا تعود صالحة كمقياس ومركز، وإما كتابة بلا خصوصية جنسية ذكورية، أي كتابة بالإطلاق كتابة خارج الفئوة، مما يسقط الجنس كمعيار صالح للتمييز إلى ذكوري ونسائي"²¹، وبهذا ترفض الناقدة التمييز الجنسي بين الرجل والمرأة، باعتبار أن الكتابة لها خصوصياتها وملاحمها

الإبداعية والفئوية الجنسية لا تعد معيارا للإبداع، فهذا التصنيف يهمل المرأة أكثر ويعطي للرجل سلطة مركزية أو موقع الند.

شرحت الكاتبة "لطيفة الزيات" سبب رفضها لمصطلح الأدب النسائي حيث رأت بأن "المصطلح يدل في العربية والآداب الأخرى على نقص في الإبداع وانتقاص من الاهتمامات النسائية المحدودة"²²، وأردفت قائلة "لقد رفضت دائما التمييز بين الكتابات النسائية وكتابات الرجال، رغم شعوري بأن النساء والرجال يكتبون بشكل مختلف والذي أملى علي هذا الموقف هو خوفي من أن مثل هذا المصطلح سيلعب دورا في إبقاء الأعمال النسائية في الدرجة الثانية في الأدب تماما، كما تم الإبقاء على المرأة في الدرجة الثانية في المجتمع والحياة"²³. فهذا الرفض مبرر حين نتقف التصنيف لا ينظر إلى المرأة المبدعة على أنها تتميز بالخصوصية في أعمالها، بل ينظر إليها نظرة دونية تبقي أعمالها في الدرجة الثانية.

أما الكاتبة "هند أبو الشعر" فتقول "أتوقف أخيرا عند لغتي، وأعتقد بأن القارئ المتفحص لها يحس بهذه الصبغة الأنثوية، إنها جزء من تركيبي، ولغتي جزء من تركيبي، وربما كان المؤشر الوحيد في خصوصيتي، وخصوصية أي كاتبة أخرى في أي عالم إبداعي"²⁴ وهنا تصل إلى قرار حاسم تفوح منه رائحة الغضب والاستنكار، فتقول "وبعد فإنني لا أخرج، الآن من التصريح بأنني أحس بانزعاج حقيقي عند أي لقاء أدبي سواء أكان حديثا صحفيا، أم ندوة أو أمسية قصصية أو تلفزيونية لبدأ أي حوار بالسؤال التقليدي الممل عن الأدب النسوي، أحس عندها بالأسى، لان هذا التصنيف يقتل فهمي السابق لدوري ككاتبة وكأنهم يرسمون حولي دائرة طشورية، ولا يسمحون لي بتجاوزها، ولأنهم يقولون: أنت كاتبة، أنت امرأة... عليك أن تلتزمي بالكتابة عن المرأة ولا شيء غير المرأة"²⁵، ففي البداية الكاتبة أقرت بالتصنيف من أجل خصوصية الإبداع وما ستقدمه المرأة للقارئ، لكنها في الأخير رفضت هذا التصنيف والتمييز لأنه يقيد المرأة الكاتبة للالتزام بكتابة ما يخص المرأة فقط وهذا يعد تهميشا لها.

ومن الرجال من رفض التصنيف هذا كذلك، نجد منهم حسام الدين الخطيب حين رأى "أن مصطلح الكتابة النسائية تم إطلاقه على أساس تصنيف بيولوجي، فهو مبدئيا لم يرفض المصطلح، وإنما رفض نوع التصنيف، فحسب رأيه التصنيف الأصح يكون لا على أساس جنسي وإنما على أساس الموضوعات المطروحة وطرق المعالجة، أي أن المصطلح لا يكون صالحا ومشروعا نقديا إلا إذا كان الأدب ينقل قضايا المرأة، ومشكلاتها الخاصة"²⁶، فالأدب النسائي لا يأخذ مشروعيته النقدية إلا إذا كان ما تكتبه المرأة يعبر عن قضاياها الخاصة، كما يرفض القبول بالمصطلح لأنّ هنالك رجال يكتبون عن المرأة وقضاياها.

ومن الجزائر نجد هذا الرفض كذلك فأحلام مستغانمي هي الأخرى ترفض المصطلح حيث تقول: "أنا لا أومن بهذا التصنيف إطلاقاً وأتبرأ منه تماماً فالأديب بما يكتب وما يقدم للقارئ سواء أكان رجلاً أم امرأة... فأنا امرأة كتبت بذاكرة رجل، هل أعد كاتبة رجالية في حين يعد "يوسف السباعي" و"إحسان عبد القدوس" كاتبين نسويين لأنهما يكتبان بذاكرة امرأة وعن امرأة، هذه التصنيفات لا تضيف شيئاً للأديب ولا تزيد وزناً أو قيمة، لأن قيمته بما يكتب وما يقدم من أحاسيس بشرية من خلال الذي يكتبه فقط".²⁷

فقيمة الأدب تكون بعيدة كل البعد عن جنس من أبدعه، وهي ترفض هذا التصنيف وتبرأ منه باعتبار أن قيمة الإبداع فيما يقدمه الكاتب للمتلقى سواء أكان رجلاً أو امرأة.

هذه إذن جولة عبر ما وجده المصطلح في الساحة الأدبية والنقدية من تحولات، تعضد وجوده أو تنفّده، ويبقى تبنيه أو رفضه موقفاً خاصاً لكل طرف.

لقد حققت المرأة العربية في تاريخها الحديث تقدماً بخروجها من هويتها البيولوجية الجسدية إلى هوية اجتماعية سياسية، ومع ذلك لم تستطع أن تنجي ابنتها فتاة اليوم من ازدواجية الحداثة والتقليد، فهي تعيش في مجتمع مليء بثقافات متناقضة تتكون من تراث تقليدي يقن حريتها، ومن ثقافة الانترنت والفيديو كليب والفضائيات التي تقدم لها صورة عن حرية مبالغ فيها. وهنا يبرز دور المرأة وهي أم في التربية وانتهاج أسلوب الحوار لتفهم توجهات أبنائها الفكرية، كي لا يُتركوا ضحية التطرف في التضيق أو الانفتاح.

إن التحديات التي يواجهها المجتمع العربي حالياً سلاحها ثورة في المعلوماتية ومفاهيم جديدة في العلاقات الاجتماعية والقيم والمتطلبات الإنتاجية، وإعادة النظر في مجموعة من المقولات والمبادئ الأخلاقية، والاجتماعية التي تشكل القاعدة التي تشيد عليها صورة المرأة، ومعالجتها في ضوء التحديات الثقافية والحضارية التي تهدد المجتمع العربي. والعمل بصدق وجدية على إخراج المرأة من ظلمة الجهل إلى نور المعرفة، لتصبح فاعلة ومؤثرة في الحياة الاجتماعية، وتتمكن من مواكبة مستجدات العصر من عولمة وغزو ثقافي، ومواجهة تحدياته بما يحقق استمرارية التنمية والتقدم للمجتمع.²⁸

عرفت الكتابة النسائية نوعاً من التأخر والتباطؤ، وذلك راجع إلى الأوضاع السياسية، والاستعمارية والثقافية التي كانت سائدة في جلّ المجتمعات العربية، إلا أن التاريخ شهد وسجل عدة نساء مناضلات قاومن الاستعمار بكل ما يملكن، وفي الوقت نفسه كافحن بالكتابة التي كانت سلاحاً لهن، وذلك من أجل استرجاع مكانتهن المسلوبة، وعلى هذا نجد المرأة العربية تألقت في الشعر والنثر، (الرواية والقصة)، في نهاية القرن التاسع عشر، "بدأت أهمية الأدب النسائي العربي، أو ما يسمى باسم أدب المخالب/الأطافر الطويلة بالظهور في الربع الأخير من القرن

التاسع عشر، إلا أنه وصل إلى درجة النضوج في فترة الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، وقد ارتبط تاريخ النضال العربي ضد الاستعمار الغربي مع تطور المرأة الاجتماعي والعلمي... فمع نضالها السياسي ضد المستعمرات كانت المرأة تناضل في نفس الوقت من أجل حريتها ومن أجل أن تكون لها مكانة علمية في المجتمعات العربية²⁹؛ أي إن المرأة العربية كانت تكتب من أجل تحرير وطنها، وتحرير نفسها والنساء من القيود والأصفاد، والكشف عن المستور، والتعبير عن المكبوت، والوصول إلى مبتغاها وإثبات قوتها للرجل الذي ظل يحط من إبداعها بكونها أنثى. فلو عدنا إلى العصور القديمة نجد أن الرجل احتقر المرأة منذ القدم، ما أدى إلى إعلان ثورتها عليه، ومزقت عباءة الحياء وأبدعت في الشعر، إلا أنها كانت تملك حسا فحوليا، وجدت نفسها تكتب بنفس أسلوب الرجل، ما جعل الأخير يحتضن كتابتها وهذا ما رأيناه في شعر "الخنساء"، وشاعرات أخريات، إلا أن الكتابة النسائية بدأت تعرف حضورا ونضجا في الساحة الأدبية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، ما دفع بالعديد من الناقدات، والكاتبات إلى نشر إنجازات المرأة العربية التي كانت تكتب مستترة بأسماء مستعارة غير اسمها، أمثال "ملك حفني ناصف" التي باتت تنشر جلّ أعمالها باسمها المستعار "باحثة البادية".

ومن أبرز الكاتبات العربيات التي ذاع صيتها نجد "مي زيادة"، كانت كتابتها بمثابة مرآة تستلهم منها الفتيات العربيات أفكارا عن وضع المرأة، "قامت مي زيادة بكتابة سيرة ثلاث سيدات أدبيات هن: وردة اليازيجية، وعائشة التيمورية، وملك حفني ناصف، ولقد قامت بذلك بتوثيق تلك السير لأجيال قادمة عديدة..."³⁰، أما فترة الخمسينات شهدت قفزة نوعية وذيبوعا للكتابة النسائية في مختلف مجالات الكتابة (الشعر والرواية)، فكانت الأخيرة (الرواية) تمثل صوت المرأة مع أسرتها، ومجتمعها، "كتبت أمينة السعيد في بداية الخمسينات رواية الجاحمة، وفي نفس الوقت نشرت رواية أنا أحيا ليلي بعلبكي، وبعدها أيام معه للأديبة كوليت خوري، وبعدها رواية الباب المفتوح للطيفة الزيات..."³¹، وفي الشعر نجد شاعرات من مختلف الأوطان العربية لمع اسمهن في الساحة الأدبية أمثال الشاعرة العراقية "نازك الملائكة"، والشاعرة الفلسطينية "فدوى طوقان"، و"غادة السمان" من سوريا.

عرفت الكتابة النسائية تقدما وتحررا، وذلك بوضع خصوصية لأدبها تميزه عن أدب الآخر، إذ حدّد النقاد هذه الخصوصية في ثلاث نقاط هي "أولا الكتابة التاريخية بخلاف كتابة الرجل غير التاريخية، وثانيا الجراة في الحديث عن الممنوعات والمحرمات بشكل عام عند المرأة، وثالثا البلاغة المختلفة"³²، هذا يعني أن كتابة المرأة كانت لها لغة مخالفة للغة الرجل، حيث نجد أغلب كتاباتها عبارة عن "السير الذاتية كما اقتحمت بعض الطابوهات التي ما تزال تقيّد هذا النوع من الكتابة، كموضوع الاغتصاب الجنسي، وغيرها من الاقتحامات الأخرى التي تجعل أدب المرأة

العربية ذا حضور فعلي ومتوهج الآن وأكثر من أي وقت مضى"³³، فنلاحظ أن الجراءة، والبوح بالكينونات، وفرض الذات، ساعدت المرأة في حجز مكان في المنصة الأدبية، وذلك بطرحها لمواضيع لم يسبقها فيها أحد. فما إن نقرأ الأدب النسائي حتى نلاحظ بأن التيمة الغالبة عليه في بداياته هي العنف، التمرد، المأساة، وشكل الرفض نسقا مضمرأ أبدلت به المرأة ما عانتة زمنا طويلا من كبت وتغييب وتهميش، وأصبح ما تكتبه هو الخطاب المفارق الذي يجب عليها أن تتحدى به خطاب الرجل الذي نال الصدارة زمنا طويلا، وآن له أن يستريح في نظرها ويفسح لها المجال كي تتصدّر عرش الكتابة، لأن العصر الحديث جدّد النظر من زاوية أخرى؛ هي زاوية المهمشين، ترويجا لثقافة الاختلاف، لأنه في عصرنا كل مختلف يستطيع تحقيق الدهشة، وكل ما يفارق العادي وحده ما يقنع قارئ هذا الزمن.

الهوامش:

1. ينظر، عصمت حوسو، الجندر (الأبعاد الاجتماعية والثقافية)، دار الشروق، الأردن، ط1، 2009، ص.ص 22/21.
- 2 - ينظر، عصمت حوسو، المرجع نفسه، ص 23 وما بعدها.
- 3 - جمانة طه، المرأة العربية في منظور الدين والواقع، - دراسة مقارنة -، من منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق - 2004، ص 270.
- 4 - ينظر، فاطمة مختاري، خصوصية الرواية النسائية، العربية، مجلة آفاق علمية، جامعة تامنغست، العدد التاسع، جوان 2014، ص41-42.
- 5 ملاك إبراهيم الجهني، قضايا المرأة في الخطاب النسوي المعاصر _الحجاب أنموذجا_، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، ط1، 2015، ص24.
- 6 رشيدة بن مسعود، المرأة والكتابة-سؤال الخصوصية وبلاغة الاختلاف، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2002، ص25.
- 7 عبد الله الغدامي، المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1997، ص17.
- 8 ينظر، رشيدة بن مسعود، المرأة والكتابة، ص32.
- 9 - هشام شرابي، النظام الأبوي وإشكالية تخلف المجتمع العربي، تر/ محمود شريح، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط2، 1993، ص.ص 51، 50.
- 10 - ينظر، هشام شرابي، المرجع نفسه، ص.ن.

- 11 - عبد القادر عراقي، بحث (المرأة العربية بين التقليد والتجديد) ، المرأة العربية بين ثقل الواقع وتطلعات التحرر، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 1999م، ص47
- 12 - م.ن، ص.ن.
- 13 - ينظر، جمانة طه، المرأة العربية في منظور الدين والواقع، - دراسة مقارنة -، من منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق - 2004، ص289.
- 14 - سارة ج.امبل، النسوية وما بعد النسوية، تر/أحمد الشامي، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ط1، 2002، ص9.
- 15 - عبد الله محمد الغدّامي، تأنيث القصيدة والقارئ المختلف، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط2، 2005، ص مقدمة.
- 16 - بثينة شعبان، 100 عام من الرواية العربية، ص25/24
- 17 - ينظر، يوسف وغليسي، خطاب التأنيث، ص24، نقلا عن محاورة مع بثينة شعبان (أجرتها زينب الأعرج)، المساء، 18/02/1987، ص08.
- 18 - جورج طرايشي، الأدب من الداخل، دار الطليعة، ط 1، 1978، ص12
- 19 - زهور كرام، السرد النسائي العربي، مقارنة في المفهوم والخطاب، شركة النشر والتوزيع الدارس، الدار البيضاء، ط1، 2004، ص93.
- سعيدة بن بوزة، الهوية والاختلاف، ص58²⁰
- سعيدة بن بوزة، الهوية والاختلاف، ص44.21
- 22 - بثينة شعبان، 100 عام من الرواية النسائية العربية، دار الآداب، بيروت، ط1، 1999، ص24، نقلا عن شهرزاد قبرص، حزيران، 1990، العدد 22 ص54.
- 23 - بثينة شعبان، المرجع نفسه، ص ن.
- 24 - إبراهيم أحمد ملحم، الأثوية في الأدب (النظرية والتطبيق)، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، ط2016، ص1، ص36.
- 25 - إبراهيم أحمد ملحم، المرجع نفسه، ص 37، نقلا عن هند غسان أبو الشعر، خصوصية الإبداع النسوي، أوراق عمل الإبداع النسائي الأول، عمان، 2001، ص316.
- 26 - رشيدة بن مسعود، المرأة والكتابة، ص78.
- 27 - يوسف وغليسي، المرجع نفسه، ص ن.
- 28 - ينظر، جمانة طه، المرأة العربية في منظور الدين والواقع، - دراسة مقارنة -، ص290.
- 29 - هدى التميمي، الأدب العربي عبر العصور، دار الساقى، بيروت، لبنان، ط1، 2015، ص356.
- 30 - هدى التميمي، المرجع نفسه، ص358.
- 31 - هدى التميمي، المرجع السابق نفسه، ص359.

³² فاطمة مختاري، خصوصية الرواية النسائية العربية، مجلة آفاق علمية، جامعة الأغواط، العدد 9، جوان 2014، ص46.

³³ سعيد عبيدي، الكتابة النسائية كرهان من رهانات الحداثة، مجلة العلوم الإنسانية، المركز الجامعي، تندوف، العدد 3، ديسمبر 2017، ص302.